شعراء معاصرون مغمورون

للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

١ — حسن طنطاوى سليم

روى ابن خلكان فى حديثه عن ربيعة الرأى أن بكر بن عبد الله الصنعانى قال: أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأى، وكنا نستزيده من حديث ربيعة، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم فى ذلك الطاق؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه، وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال نعم. قلنا: أنت الذى يحدث عنك مالك ابن أنس؟ قال نعم. قلنا: كيف حظى بك مالك وأنت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالا من دولة خير من حمل علم!!!

هكذا استطاع ربيعة الرأى بهذا الرد المفحم أن يسكت من جاء يؤنبه، وكانت كلماته هذه أصدق تصوير لما عليه المجتمع فى كل العصور، وكل البيئات، فقد أدرك ربيعة أن العالم لا يعظم قدره إلا إذا اتصل بذى سلطان، وأن الشاعر لا ينبه ذكره إلا إذا عاش فى كنف عظيم، وأن الأديب لا يحمد أمره إلا إذا حظى بصحبة من بيدهم الأمر. والتاريخ يحدثنا بأنه قل أن نجد عالما قدر علمه فى حياته، أو شاعراً سار شعره، أو فنانا علا صيته إلا وجدنا وراءه صاحب أمر يقدمه إلى الناس، وعندئذ فقط يلق من الجماهير تقديراً لفنه، وإشادة بذكره وإعجابا بمواهبه، أما هؤلاء الذين وهبوا ملكات علمية أو فنية ولم يستطيعوا الاتصال بعظيم أو كبير فهم يعيشون منطوين على أنفسهم، منزوين فى عقور ديارهم، لا يشعر بهم أحد، ولا تعرف ملكاتهم ولا تقدر مواهبهم، فنهم من لا يقوى ملكته الفنية لأن الناس حوله لا يشعرون به، ومنهم من ينذى مواهبه وملكاته إرضاء لنفسه دون الحاجة إلى إرضاء الناس وهؤلاء هم الذين سنتحدث عنهم محاولين أن تظهر شخصيتهم الفنية، لأن هؤلاء أولى بالحديث عنهم لأن الفن أصيل عندهم. وهم كما قال أرسطاليس يعيشون للفن فقط، ومن هنا كان فنهم أرفع وأرق من فن كثير ممن حظوا بشهرة واسعة، وامعا عريضا، ونالوا تقدير الجمهور وإعجابه.

وأول حديث لى عن الشعراء المغمورين، هو الحديث عن شاعر معاصر هو الأستاذ حسن طنطاوى سليم مدرس العربية بمدرسة المنيا الثانوية، فقد سمعت منذ شهور قطعة من شعره كان يحفظها صديق زميل، فأعجبتنى تلك المقطوعة لما فيها من شاعرية وفن أصيل، لاحظت أن الشاعر لم يكن من المتكلفين ولا من المتمقين، إنما يرسل الشعر عن طبيعة فنان متمكن من فنه فى ألفاظ سهلة يسيرة ليس بها غموض ولا تعقيد، فهو يقول فى هذه المقطوعة

رأى فى اللهو متسعا	فخلى الزهد والورعا
وأقسم لا يرى قمرا	بدا، إلا به ولعا
فصار الحب مذهبه	وعاد لقيده تبعا
وصرف الدهر شيبه	وصير رأسه شيعا
ودق الهم أعظمه	فما تاب ولا امتنعا
عذاب الحب شرعته	رضينا بالذى شرعا

حقيقة أرى كثيرا من الشعراء المتقدمين تناولوا الغرض فى شعرهم، وذكروا أمثال هذه المعانى، ولكن الشاعر الحديث أرق من القدماء، ولا سيما البيتين الأخيرين.

طلبت المزيد من شعر هذا المغمور، وأردت أن أعرف شيئا من ترجمة حياته، فكان من حظى أن ألقاه وأتحدث إليه ويتحدث إلى، فعرفت أنه رجل عصامى حقا، نشأ فى أسرة فقيرة، ولكنه كافح فى الحياة، وذاق الحلو والمر، واضطر إلى أن يلتمس قوته فى الوقت الذى كان يهيئ نفسه فيه للحصول على الشهادات الدراسية، يشتغل مرة كاتبا عند صائغ، ومرة أخرى كاتبا عند محام، ثم يحصل على كفاءة التعليم الأولى فيعين مدرسا إلزاميا، فناظرا إلزاميا أيضا، ولكن لم تقعد به همته عند هذه الوظائف بل درس وجد فى الدرس حتى حصل على دبلوم التجارة الليلية فى نفس السنة التى حصل فيها على شهادة تجهيزية دار العلوم، وقد ساعدته مواهبه وملكاته على أن يحصل على هاتين الشهادتين من المنزل دون أن يتلقى العلم عن مدرس بالرغم من كده فى أعماله الأخرى التى اضطرته إليها الحياة، واستمر فى كفاحه حتى حصل على إجازة التدريس فى دار العلوم وتقلب فى مناصب التدريس بالمدارس الابتدائية والثانوية حتى استقر به المقام فى بلده الذى نشأ فيه، وأصبح قانعا بما وهبه الله من سعة فى الرزق. فازددت

إكبارا له وإعجابا بنشاطه وهمته، واستمعت إلى أشعاره، فعجبت كيف يغمر مثل هذا الفن، ويجهل مثل هذا الشاعر المكافح المجاهد في الحياة. أنشدني قطعة من قصيدته «معجزة القرآن الكريم» وفيها يقول:

قالت أتطرب بعد فوت أوانه ... وترى حليف البشر بعد زمانه
وأراك في مرح الصبا وكأنما ... عاد الشباب إليك في ريعانه
قلت اسمعي يا عز لا تتعجبي ... إني سمعت الله في قرآنه
والجن قد سمعت به فتعجبت ... من رشده، وصغت إلى رحمانه
(عمر) الذي قد كان جد معاند ... للمسلمين يلج في طغيانه
لما تلا (طه) استعاد صوابه ... وأتى الرسول يعوج في إيمانه
وأنا الأديب تلوته ووعيته ... فسجدت عجزا عند سحر بيانه

* *

(ومحمد) لم يختلقه وإنما ... مولاه يسره لنا بلسانه
الله غازله وناسج برده ... والمصطفى البزاز في دكانه
لا يبتغي أجرا على تبيانه ... فالله آجره ترحب جنانه

* * *

قد أعجز الفصحاء منذ نزوله ... حتى يصير الدهر في أكفانه
إن كنت تنكر ذاك فأت بسورة ... من مثله وانزل إلى ميدانه
أو فانطح الصخر الصليب فإنما ... مولاك وازنه على ميزانه

* * *

أين السفينة؟ أين بعض حطامها؟ ... يروى لنا ما كان من طوفانه
أين العصا؟ تحكي لنا بلسانها ... ما كان من فرعون أو هامانه
أو طين عيسى فيه ينفخ داعيا ... فإذا به طير على أفنانه
بل أين ناقة صالح في شربها؟ ... ولهيب إبراهيم تحت دخانه
فنيت جميع المعجزات ولم يزل ... حيا يشير إلى الهدى ببنانه

من هذه القصيدة الجميلة نرى الشاعر يتأثر بالقرآن الكريم، ويجرى لسانه بالحديث عن إعجاز القرآن حديث رجل امتلأ بنور الهدى والفرقان، فاقتبس في قصيدته بعض آيات القرآن، وضمن قصيدته معاني آيات أخرى، نظمها في هذا الشعر السهل الرقيق، ثم نرى الشاعر وفق في اختيار الألفاظ التي تلائم المعنى الذي يقصده ملاءمة تامة ولا سيما في البيتين الرابع والخامس، ففي البيت الرابع يتحدث عن عمر قبل الإسلام فقال إن عمر كان «يلج في طغيانه» وفي البيت الخامس يتحدث عن عمر بعد الإسلام فقال إنه «عوج في إيمانه» ولعلك معي في أن الشاعر أحسن كل الإحسان في اختيار هذه الألفاظ التي تدل على ما يرمي إليه مع ما فيهما من الوسيقى اللفظية التي تلائم المعنى. وجميل من الشاعر أن يتحدث في آخر بيت من القصيدة عن معجزات الأنبياء وأنها فنيت وليس لها أثر الآن، ولكن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي لا تزال بل ستظل باقية إلى أن يشاء الله.

وشاعرنا مصري تتمثل فيه خصائص البيئة المصرية، وتتجلى شخصيته الفنية في مقطوعاته الفكاهية، ومداعباته لإخوانه، أو حديثه عما يحيط حوله من ألوان الحياة، والمصري كما قال بعض النقاد - يميل إلى الفكاهة ويتذوقها، ويقهقه لسماعها، والأدب المصري منذ أقدم العصور ملئ بالفكاهات الشعرية وغير الشعرية، حتى لتعد الفكاهة ضرورة من ضرورات الحياة المصرية، والشاعر حسن طنطاوي سليم ضرب بسهم وافر في هذه الناحية حتى لتكاد تذهب إلى أن شعره كله في الفكاهة بل في المجون، ومتى كانت الفكاهة المصرية خالية من المجون؟ - استمع إليه وهو يداعب معالي عبد الحميد عبد الحق باشا وزير التموين سابقا إبان أزمة السكر، وكان الشاعر أصيب بمرض البول السكري.

قل لعبد الحق إن لاقيته ... لا تخف نقصا يصيب السكرا
إن عندي منه قدرا هائلا ... يغرق الأمصار طرا والقرى
أشرب الماء نقيا صافيا ... فإذا السكر فيه قد سرى
أبيض اللون فإن حللته ... صار في الأنبوب شيئا أحمرا
ما لكم ترجون (عبودا) وفي ... مصر من سكره يكفي الورى

أو استمع إليه وهو يصف (السويس) إبان الحرب وقد تزاحم فيها الناس، واشتد بها الغلاء، وتساقطت عليها القنابل، كل ذلك في صور متلاحقة سريعة يتلو بعضها بعضا كأننا نشاهد عرضا سينمائيا.

خرجت من السويس وفي فؤادي ... قروح ما لها قط التئام
لأن بها غلاء لا يداني ... حلا في جيبه الموت الزؤام
وأزمة مسكن دون انفراج ... فليس بها لمقترب مقام
زحام ما رأيت له مثيلا ... تعالى أن يقال له زحام